مفهوم الشعر

مما لاشك فيه أنّ كل محاولة لبتر الأواصر الأولى، واجتثاث للجذور التي تترامى أطرافها إلى عمق الاتصال بين العرب يعدّ من قبيل الغلو والمغالاة، فهدفنا ليس هو الوقوع في أخطاء الذين سبقونا حين فصلوا في مؤلفاتهم بين المشرق والمغرب إمّا جهلا وإمّا تجاهلاً، وليس الهدف أيضاً أن نربط كل ما هو إقليميّ مغربيّ بما هو مشرقيّ عنوة وإجباراً، وإنما سنبحث في ما هو مشترك بينهما، وما هو مبتدع متجدّد عند نقاد المغرب العربيّ خاصة؛ لأن النقد العربي نفسه امتاح في مختلف الآراء السابقة عليه بدءاً من مفهوم (سقراط) المتمثّل في أنّ الرسّم، والشعر، والموسيقا، والرقص، والنّحت أنواع من التقليد تقوم على محاكاة الطبيعة. ومفهوم (أرسطو) للشعر على أنّه محاكاة لأشياء تشاهدها الحواس أصلاً فتعبّر عنها تخميناً أو استشرافاً. كما عرّف (هوراس) الشعر على أنه مثل الرسم؛ بيد أنّ الرسم صامت، على حين أن الشعر صورة ناطقة.

هذه المفاهيم والنظريات القديمة في ماهية الفن ظلّت قيداً للنقاد العرب بصورة عامّة حيث أسرتهم بقوتها وبسبقها فظلّوا زمناً يردّدونها مع محاولة إدخال الشخصية العربية ولاسيما مع قدامة بن جعفر، لكنّ الأوكد هو أنّ النقاد العرب اهتموا أكثر بما يمتّ بصلة إلى صنعة الشعر؛ أي "عموده" كما بحث ذلك المرزوقي (-421هـ) في مقدّمته الشهيرة لديوان الحماسة لأبي تّمام[34].

وقد يطرح تساؤل: ولكن من هو أوّل ناقد في المغرب العربي؟

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس سهلاً للأسباب التي ذكرناها آنفاً من وجهة، ولأن تحديد التاريخ الدقيق يصعب من وجهة ثانية، حيث إنّ هنالك رسالة لابن المدبّر الذي عاش في القرن الثالث الهجريّ إبّان عصر الجاحظ تدعى "الرسالة العذراء" قام بنشرها الدكتور زكي مبارك[35].

ولذلك لا يلتفت لما زعمه بعض الباحثين من أنّ القرن السادس للهجرة يمثّل الانطلاقة الحقيقية للنقد في المغرب الأقصى خاصّة، وأن النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة هو الذي يمثّل ذلك في الجزائر على يد عبد الكريم النهشلي في كتابه الخاصّ الموسوم بـ "الممتع في علم الشعر وعمله"[36].

---

(34) عمود الشعر: هو الأسلوب الذي سلكه فحول الشعراء من عهد الجاهلية وما بعده في بلاغة الكلام وإحسان المعاني والبعد عن التكلف وتجنّب استكراه الألفاظ والمعاني. وذكر عن البحتري أنّه سئل عن طريقته وطريقة أبي تمام فقال: أنا أقوم بعمود الشعر، وأبو تمام كان أغوص على المعاني... فتحصل أن عمود الشعر هو مجموع شرائط الإجادة اللفظية والمعنوية، وهو الذي اعتمده المؤلف.
(شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام).
من تحرير: محمد الطاهر بن عاشور.. دار الكتب الشرقية.. تونس 1377هـ (1958م) ص78-79.

(35) يراجع كتاب "ندوة حول جوانب من الأدب..." ص ص 40- 41 (وقد أشرنا إلى ذلك من قبل في المدخل).

(36) هو أبو محمد عبد الكريم النهشلي، ولد بالمسيلة وقضى بها أيام شبابه.. رحل إلى القيروان للاستزادة من العلم.. عرف عنه بالإضافة إلى النقد أنه شاعر نظم في مختلف الأغراض الشعريّة من وصف، ورثاء، ومدح..
ينظر كتاب: "الحركة النقديّة على أيام ابن رشيق المسيلي" للدكتور بشير خلدون- ص. و. ن. ت- الجزائر ط1 سنة 1981 ص53.

ونظراً إلى القيمة التاريخية في هذا الإقليم الغربي من العالم، ورغبة منا في تفتيق الأذهان على المعارف النقدية وأقطابها في المغرب العربيّ، فإننا سنضيف إلى ما شاع من نظريات نقدية، تعريفات بأسماء هؤلاء الرجال الذين أسهموا بدرجة كبيرة في بعث الحركة النقديّة العربيّة، وسنتناول في هذا الفصل بالدراسة كلاً من عبد الكريم النهشلي، وابن أبي إسحاق الحصري، والقزاز، وابن رشيق، وابن شرف؛ مستعرضين أهمّ تعريفاتهم وإبداعاتهم النقدية[37]، على أنّ التركيز سينصبّ أكثر على جوهر القضايا التي أبانوا فيها عن آرائهم بصورة جليّة أو ضمنية.

ومن الآراء التي وصلت إلينا عن هؤلاء تناولهم لعناصر تنصرف إلى:

- البداية الأولى للشعر، وكيف نشأت القصيدة؟
- تأثير الشاعر في القبيلة.
- فضل الشعر وتأثيره في النفوس.
- أغراض الشعر وأنواعه.
- الموازنة بين الشعراء.
- آراء نقدية في الشعر والشعراء.
- إشكالية القديم والحديث.

ومما لا ريب فيه أنّ أولى نقطة أثارت نقاشاً حاداً –ولا تزال- هي "مفهوم الشعر" حيث أدلى كل واحد بدلوه، وبذل أقصى جهده من أجل أن يستميز برأي، أو ينفرد بإشارة، فتعددت بذلك المفاهيم إما تقليداً لأحكام سابقة، وإمّا ابتكاراً واجتهاداً، لأنّ هؤلاء كانوا- يحيون في بيئة ورثت عن السابقين ترسانة من الثقافة الأدبية، وأفادت من النقاد العرب أمثال ابن سلاّم، وابن قتيبة، والجاحظ، وقدامة، وغيرهم؛ فكان طبيعياً أن يتجسد هذا الموروث في ثقافة نقاد المغرب العربيّ فتصادف بعض النظريات هوى من أنفسهم، ويلقى بعضها الآخر رفضاً واشمئزازاً؛ يقول النهشلي محاولاً تعريف الشعر: "والشعر عندهم الفطنة؛ ومعنى قولهم ليت شعري: أي ليت فطنتي"[38]، فتعريف قدامة للشعر شهير ذائع، ولكنّ الجديد الذي أضافه النهشلي هو أنّ مفهوم الشعر عند العرب يرتبط بالحذق والمهارة، واستشراف المستقبل؛ إذ أنّه مرادف للفطنة، ودعامة للعلم الذي ينصرف إلى مختلف القضايا التي تصبّ كلّها في واد واحد؛ أي في الارتقاء بالشعر إلى أسمى درجاته، وأعلى مراتبه؛ وهو لن يكون كذلك إلاّ إذا جاء على أيدي شعراء يتقنون القواعد، ويحذقون الصنعة.

وحين يعرّف الشعر يثني عليه ويؤثره على النثر كما يفهم من وصفه له قائلاً: "والشعر أبلغ البيانين، وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها المشهور"[39].

وتعريف الشعر بهذا المفهوم لا ينفرد به النهشلي وحده، فقد سبقه إلى ذلك غيره بما يقترب منه أو يشبهه. ويتبادر إلى الذهن في هذا المقام اسم الناقد العسكريّ الذي خصص كتابه (الصّناعتين) لهذين الخطابين، مما يؤكد بأنّ معظم الباحثين الأوائل اتجهوا هذا الاتجاه، وسلكوا هذا المسلك، فاهتموا بالشعر والنثر على سبيل الموازنة غالباً؛ ثم آثروا الأوّل لاعتبارات ودواع لها علاقة بالناحية

---

[37] نظراً إلى غياب المظان، فقد استعنا بمرجع الدكتور بشير خلدون "الحركة النقدية.." وهذا هو السبب في كثرة وروده في كتابنا هذا.

[38] الممتع- ت/ د. الكعبي- الدار العربية للكتاب- ليبيا/ تونس 1398هـ، (1978) ص24.

[39] م. ن؛ ص24.

الإيقاعيّة خاصة مما يجعله يعلق بالأذهان، ويلصق بالذاكرة، فيكون النص النثري سريع الاستيعاب يفرض نفسه على المتلقي أكثر من النص النثري. وهذه حقيقة لا تجهل أو لا ينبغي أن تتجاهل على الأقل.

ونشأة القصيدة لها ارتباط بمخيلة الأوائل تنقلها المظانّ كما هي دون تعديلات توشك أن تدلف من الوقائع الأسطورية؛ فهم يذكرون أن الشعر نشأ بناء على احتياجات العرب إلى تسجيل أحداثهم ومآثرهم وأيامهم تكون مجموعة في قراطيس يعودون إليها كلما دعت الحاجة، وذلك التسجيل لا يكون خطاباً عادياً (منثوراً) إنما خطاباً موزوناً ممقعاً (مشعوراً) هو أقرب إلى الغناء منه إلى الخطاب العادي؛ فلما اهتدوا إلى ذلك وتمكنوا منه أطلقوا عليه اسم "شعر"[40].

كيف بدأ الشعر!

لقد تناولت مختلف المظانّ هذه القضيّة بتفصيل؛ ومن المغاربة الذين كانت لهم آراء فيها يجدر ذكر (عبد الكريم النهشلي) الذي استشهد ابن رشيق بأحد نصوصه التي تتناول هذا الجانب؛ قال: "إنّ أوّل من أخذ في ترجيعه الحدّاء (مضر بن نزار) فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول: وايداه! وكان أحسن خلق الله جرما وصوتا فأصغت الإبل إليه وجدّت في السير، فجعلت العرب مثالاً لقوله: هايدا هايدا- يحدون به الإبل، حكى ذلك عبد الكريم في كتابه"[41].

وبعد أن أثبتَ ابن رشيق هذا الرأي لأستاذه النهشلي كأنّه لم يقنعه دليله هذا ارتأى أن يضيف إليه تدعيما وتوضيحا فقال: "زعم ناس من مضر أنّ أوّل من حدا، رجل منهم، كان في إبله أيام الربيع، فأمر غلاما له ببعض أمر، فاستبطأه، فضربه بالعصا، فجعل ينشد في الإبل ويقول، يا يداه، يا يداه! فقال له: الزم الزم. واستفتح الناس الحداء من ذلك الوقت"[42].

أوردنا هذين الرأيين لناقدين مغربيين كي نكشف عن إسهامات المغاربة في إضاءة بداية الشعر من وجهة، وبروز النقد المغربيّ وقيمته من وجهة ثانية.

وللنهشلي آراء كثيرة لم تقتصر على ما سبق فحسب، ولكنها بحثت في قيم أخرى لها وزنها في مفهوم الشعر وسلاحه وأثره كذلك؛ يقول: "كم جهد عسير كان الشعر فرج يسره، ومعروف كان سبب إسداءه، وحياة كان سبب استرجاعها"[43].

فالشعر عند هذا الناقد سلاح خطير يقدّم ويؤخر، ويعزّ ويذلّ، ويعلي ويخفض، ويمنح ويمنع، ويقوي ويضعف؛ بل ويزوج ويطلق أحياناً[44] لأنه الفن

---

[40] *ينظر م. س. ص: 24.*
[41] *العمدة. ت/ محيي الدين عبد الحميد دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء د. ت2: 314.*
[42] *نفسه 2: 314.*
[43] *الممتع، ص15.*
[44] *قصة الزواج التي تحكيها المصادر بشأن زواج بنات (المحلّق) في أقلِّ من نصف شهر بعد أن أنشد الحطيئة قصيدة فيه؛ منها:*

نفى الذّمّ عن آل المحلّق جفنة ... كجابية الشيخ العراقيّ تفهق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار بالبقاع تحرّق
تشبّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار النّدى والمحلق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندوانيّ رونق

الأوحد الذي كان- وربما لا يزال- يثير العرب ويخيفهم ويروّعهم، أو يشتت صفوفهم أو يلمّ شعث اختلافهم تبعاً للموضوع الذي يلائم الموقف؛ مما أفضى إلى نشأة الأغراض الشعرية المتنوعة من هجاء ومدح وفخر وحكمة ووصف وغزل ورثاء وغيرها مع توظيف كل نوع من هذه الأنواع في المقام الذي تناسبه، والموقف الذي يؤدي الغرض أكثر.

وعندما نتحدث عن قيمة الشعر فنحن لا ننكر باثّ هذا الشعر؛ إنه هو هذا الناص صاحب الزفرات الساخنة، أو الشظايا المحرقة المدوّية بوساطة اللسان؛ لأنه هو السلاح الفتّاك المرهب الذي هزّ الأركان، وقوّض البنيان، هو هذا الذي هدّ عروشاً كانت زاهية، وشتّت جموعا كانت في شغل فاكهة، وهذا ما يؤكّده نقاد المغرب العربيّ جميعاً وفي طليعتهم (النهشلي) الذي تحدّث عن قيمة الشاعر في القبيلة فقال متحدّثاً عن الأفراح العارمة التي كانت تعمّ القبائل إذا نبغ فيها شاعر: "وكان الشاعر في الجاهلية إذا نبغ في قبيلة ركبت العرب إليها فهنّأتها به لذبّهم عن الأحساب، وانتصارهم به على الأعداء. وكانت العرب لا تهنّئ إلاّ بفرس منتج، أو مولود وُلد، أو شاعر نبغ"[45].

إنّ نبوغ شاعر وظهوره في قومه هو في حدّ ذاته حدث له دلالته، لأنّه يغدو السيف السليط الذي يقاوم المعتدين على القبيلة، فيهابون جانبهم، ويخشون أمرهم ويتزلّفون إليهم طمعاً في عدم التعريض بهم، والإبقاء على صورتهم "المشرقة" بين أعدائهم.

ومن خلال ما تداولته المصادر وتناولته، نجد أنّ الإبداع الشعريّ نال حظّاً وفيراً من الاهتمام ومنحته قيمة، وأعطته المكانة التي كان العرب يولونها هذا الشعر، فكان الصورة التي تدفع إلى الاعتزاز به فهو السيف البتّار للأعداء الذين كانوا يخشون من أثر الكلام أكثر من خوفهم مخاطر السلاح. ولكنّ إرضاء الرأي العامّ ليس دائماً شيئاً هيّناً؛ لذلك كانت الشعراء تسهر الليالي وتضحي بنومها وراحتها من أجل البحث عن هذا الرضى وتلبية هذا الجانب المعنويّ للمتلقيّ. وحرصاً منهم على ذلك وتخوّفاً من الفشل أو الضعف إزاءهم في الآن ذاته. فقد التجأ كثير منهم إلى طقوس خاصة متداولة في المصادر التي عنيت بهذه الإشكالية، فقد كان "الفرزدق يقول: تمرّ عليّ فترة وخلع ضرس أهون علي من قول بيت من الشعر، كما كان بشار يتمرّغ في التراب حين تشرد عليه القوافي وتصعب، بينما كان بعضهم يخرج إلى البراري زمن الأسحار..."[46] [وقالوا]: كانوا يستعينون على الشعر بالتّفرد والوحدة.

وكان الليل أحبّ الأوقات إليهم، يعالجون فيه الإنتاج وقد هدأ الليل وسادته وحشة الظلام الرهيب. وربما استجاب الشعر للشاعر وانثال عليه انثيالاً عند أول نداء، وربّما هاج وماج أو اضطرب اضطراب الوحش الجائع... ذلك أنّ في الشعر قدراً من الإلهام غير منكور، والنفس الإنسانية غريبة في ملكاتها، غامضة في حالاتها.. لذلك دخل في وهم هذه الطائفة من الشعراء أنّ الشعر يأتي من مصدر خفي، ويهبط من عالم بعيد، فتصوّروا أنّ وراءهم شياطين يمدّونهم بما يقولون. ورسخ هذا الوهم في نفوسهم واستقرّ في أذهان الناس، فأكسبهم عندهم رهبة

فما أتمّ القصيدة إلا والناس ينسلّون إلى المحلق يهنّئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته، لمكان شعر الأعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف.

أمّا الطلاق/ فهو ما قام به امرؤ القيس بعد أن آثرت زوجه (أم جندب) شعر علقمة على شعره، فاتهمها بعشقها له وفارقها في الحال.

ينظر: "الشعر والشعراء" لابن قتيبة. ت/ أحمد محمد شاكر –دار المعارف- القاهرة 1966 جـ1 ص218.

[45] م. س. ص 25/ العمدة 1: 37 ثم 65.

[46] د. بشير خلدون: م. س. ص 71.

وجلالا، واختلط في أذهانهم الشاعر والساحر ، والكاهن، فهم جميعاً ينتمون إلى دولة الظلام الغامضة الرهيبة.."[47].

ابن رشيق يكشف تعسّر الولادة على الشعراء:

وروى ابن رشيق طائفة من الحكايات التي تتعلق بالطريقة التي يلجأ إليها الشعراء عادة حينما يستعصي عليهم، فذكر أنّ (كثير) كان إذا حصل له ذلك يطوف في الرّباع المحيلة، والرياض المعشبة، فيسهل عليه أرصنه، ويسرع إليه أحسنه[48].

وقال أيضاً: "وحدّثني بعض أصحابنا من أهل المهديّة- وقد مررنا بموضع بها يعرفه بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواء- قال: جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا، فقلت أبا محمد قال: نعم: قلت: ما تصنع هاهنا؟ قال: ألقح خاطري، وأجلو ناظري: قلت: فهل نتج لك شيء؟ قال: ما تقرّبه عيني وعينك إن شاء الله تعالى...."[49].

وقالوا: كان جرير يشعل سراجه ويعتزل، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطّى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه[50].

ويصف ديدور (DIDEROT) الشاعر أو الفنان بأنه عصيّ المزاج، فهو قبل أن يمسك القلم، يضطرب عشرات المرات (في حضرة موضوعه) ويفقد النوم، ليستيقظ في منتصف الليل، فيهرول في قميص نومه بقدمين عاريتين ليدون كلامه في ضوء مصباح[51].

اعتبار وحدة "البيت" مقياساً ذوقياً جماليّاً:

لقد كان الشعراء يبحثون في الشكل ولكن على صورة التحكم في البيت باعتباره الوحدة الأساسية في النص؛ وقد يعجب متلقّ آخر بيتين أو ثلاثة، فقد أنشد ابن الأعرابيّ بيتاً لأبي العتاهيّة:

واصبرْ علَى غِيَرِ الزّمان فإنّما فَرَجُ الشّدائد مثل حَلِّ عِقَالِ

ثم قال لجليسه: هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟[52].

وأنشد محمد بن كناسة إسحاق بن إبراهيم بيتين من الشعر، فقال إسحاق: وددت والله لو أنّ هذين البيتين لي بنصف ما أملك؛ والبيتان هما:

فيّ انقباضٌ وحِشمَةٌ فإذا صَادَفْتُ أَهْلَ الوفاءِ والكَرمِ

أرسلتُ نفسِي على سَجيّتِها وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشِمِ[53]

ودخل محمد بن العباس بن التّيفاشي على (عبد المومن بن عليّ)، وابتدأ في إنشاد قصيدته اللاميّة المعروفة، فلما أنشد البيت الأول منها، وهو قوله:

مثلُ الخليفَةِ عبدُ المومن بن على ما هزَّ عِطْفَيْهِ بين البيض والأَسَل

---

[47] *المذاهب النقدية: للدكتور ماهر حسن دار الطباعة الحديثة القاهرة. ص145.*
[48] *العمدة 1: 206.*
[49] *نفسه 1: 206.*
[50] *ينظر م. ن. 1: 207.*
[51] *ينظر كتاب "النقد العربيّ الحديث" للدكتور محمد زغلول سلام- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- د. ت. ص71.*
[52] *ينظر "الخيال في الشعر العربيّ" للشاعر محمد الخضر حسين ت/ علي الرضا التونسيّ ط2 سنة 1392هـ (1972م) ص97.*
[53] *الشيخ محمد الخضر حسين: م. ن. ص. 99.*

أشار عبد المومن إلى الشاعر أن يقتصر على هذا البيت، وأمر له بألف دينار[54].

وهذا الإعجاب بالبيت الواحد أو البيتين لم يكن في المواقف الذاتية فحسب، بل كان يراعي حتى في المفاهيم التي طبّقت على الملامح النقديّة في الشعر القديم من لدن القدامى المعاصرين لهم أو الذين خلفوا من بعدهم؛ حيث إنّهم كثيراً ما كانوا يقتصرون على بيت واحد معتبرينه أروع وأجلّ وأعمق وأسمى وأصدق وأمدح، أو أكذب وأسخف وأردأ وأسقط...

ومن هذه الأحكام ما وصل إلينا بشأن بيت أبي ذؤيب الهذليّ:

والنّفسُ راغبةً إذا رغّبْتَها وإذا تُرَدّ إلى قليل تَقْنَعُ

حيث اعتبره (الأصمعيّ) أبرع بيت قالته العرب[55].

سيادة الأحكام النقدية على البيت الواحد:

لقد سادت هذه المفاهيم مختلف اللمحات النقديّة، فكان النقاد القدامى يدلون بأدلائهم حاكمين على بيت واحد من ضمن قصيدة شعريّة، بل من خلال ديوان كامل أو دواوين عديدة؛ فعدّوا بيتاً مجهولاً بأنّه أحكم بيت قالته العرب؛ وهو قول الشاعر:

ولربّما ابْتَسَمَ الكريمُ من الأذى وفُؤَادُهُ من حَرّهُ يتأوّهُ[56]

وحكموا على قول الحطيئة التالي بأنّه أصدق بيت قالته العرب:

مَن يفعلِ الخيرَ لم يعدمْ جوازيَهُ لا يذهب العُرفُ بين الله والنّاسِ[57]

ولا نتجاهل أنّ هذه المفاهيم سادت معظم الشعر العربيّ القديم وإن لم تسد كل الأحكام؛ أو على الأقل لم تكن القول الفصل الذي لا يناقش بل ألفينا من لم يحفل بهذه الأحكام التي تعتمد على الذاتية، والهوى أكثر من الاعتماد على نظرية نقديّة ثابتة لا تضمحلّ بمرور الدهر، لكن، وعلى الرغم مما استشهدنا به من أمثلة، فإنّ الحكم العامّ الذي لم يتجادل حوله كثيراً كان هو الميلان إلى "الصدق" حتى اجتمعت النظرة وتوحّدت حول البيت الشهير لحسان بن ثابت:

وإنّ أشعرَ بيتٍ أنت قائلُهُ بيتٌ يُقَالُ إذا أنشَدْتَهُ صَدَقَا[58]

فالنقد القديم إذاً، والذي كان رافداً للنقاد في المغرب العربي كثيراً ما كان يتجاهل جمال الصورة وروعة البيان، ويصبّ كل حكمه على ناحية لغوية بحت، أو يتجاهل المجاز فيطالب بالحقيقة؛ فقد ذكر أنّ ذا الرّمة أنشد بيته الآتي أمام (بلال بن بردة):

رأيتُ الناسَ ينتَجِعُونَ غَيْثاً فقلتُ لِصَيْدَحِ انتجعي بلالا

قال بلال: يا غلام مر لصيدح بقتّ وعلف فإنّما هي انتجعتنا. ويعلق محمد الخضر حسين على هذا التصرّف من الممدوح فيقول: "من الظاهر أنّ ذا الرمة

---

[54] م. س، ص102.
[55] الشيخ محمد الخضر حسين: م. س. ص104.
[56] م. س، ص104.
[57] نفسه، ص104.
[58] العمدة لابن رشيق 1: 114.

إنما أراد من انتجاع صيدح-التي هي ناقته- انتجاع نفسه، ومثاله في القرآن قوله تعالى: {واسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إنَّا لَصَادِقُونَ}[59]. وإنما المراد أهل القرية وأهل العير، وإذا ذكر العربيّ انتجاع الناقة للممدوح وعني به انتجاع نفسه، فلأنّ الراحلة لا تنتجع مكاناً إلاّ حيث ينتجعه صاحبها ومثل هذا المجاز لا يخفى على بلال بن بردة، ولكنّ الأوفق بمقام الاستعطاف وإظهار الحاجة أن ينسب الشاعر الانتجاع لنفسه"[60].

ومن خلال هذا المنطلق حدثت تطلعات إلى تفاصيل أكثر؛ فانشطر آله إلى فريقين؛ فريق يجنح إلى اللفظ، وفريق ثان يؤثر المعنى قبل أن يحدث تطور أكثر فيأتي من يشترط توافر القيمتين معاً في العمل الشعريّ كما أوضحناه في التمهيد من هذا البحث.

فالشعر العربيّ من هذا المنظور وغيره، كان قد تعرّض أحياناً إلى انتقادات، وأحياناً أخرى إلى موازرة له والرفع من شأنه، لأن الشعر في الواقع من المصنّفات والنصوص الخالدة التي ظلت تعايش العربيّ وتصاحبه انطلاقاً من بيئته الجاهلية الأولى ووصولاً إلى ما حققته الأمة العربية الإسلامية من صنوف الحضارة، وألوان طرائق العيش في المأكل والمشرب والمحفل وفي الحكم نفسه. فالشعر الذي يواكب نهضة أمّة هو بلا شك شعر يحقّ له البقاء، ويجمل به أن يتداول من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر. ومثل هذه النّظرات هي التي أفضت إلى التنافس في تبويب هذا الشعر وتصنيفه، ثم التّدقيق في تركيباته المختلفة. وكان نقّاد المغرب العربيّ بدورهم يناقشون هذه القضايا، ويبحثون في هذه الإشكالات.

أقسام الشعر عند النهشلي:

نظر القدامى إلى أقسام الشعر نظرات مختلفة كل حسب ميوله، فلما جاء النهشلي صنّفه تصنيفاً مغايراً يتلاءم مع عقيدته الراسخة، ومع التّقاليد الإجتماعية التي تنحو منحى أخلاقياً؛ فقال "الشعر أربعة أصناف؛ فشعر هو خير كلّه: وذلك ما كان في باب الزّهد والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثّل به بالخير وما أشبه ذلك"، وشعر هو ظرف كلّه وذلك هو القول في الأصناف والنعوت والتشبيه وما يفتن به من النعوت، والمعاني والآداب. وشعر هو شرّ كله: وذلك هو الهجاء وما تسرّع به الشاعر إلى أعراض الناس. وشعر يتكسّب به: وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها، ويخاطب كل إنسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه"[61].

تحليل نص النهشلي:

إن هذا النص الذي أوردناه يحتاج إلى وقفة متأنية لتحليل ما احتوى عليه من قضايا نقديّة تماشت مع طبيعة الناقد ومن ثم إبرازه، فقد اشتمل حكم الناقد على توضيح أربعة أصناف؛ لكن الفكرة الأساسية تتلخّص في قوله:

1-"شعر هو خير كله: الزهد، والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثّل به بالخير".

---

[59] *سورة يوسف- الآية 82.*
[60] *م. س. ص108.*
[61] *ابن رشيق: العمدة: 1: 118.*